امرأة أخرى . . . .

شبه قصة مصرية

بقلم : محمود كامل المحامي

هو — شاعر في الثلاثين من عمره

هي — فتاة في الخامسة والعشرين ظهرت ذات يوم في أفق حياة الشاعر

هي — ولكنني كنت اظن انك احببتني هو — من أين جاءك هذا ؟

هي — من اهتمامك بي . كان يبدو عليك كلما تحدثت اليك انك سعيد بهذا الحديث . لم تظهر لي يوماً ضجراً منه

هو — أين هو ذلك الرجل الذي يظهر الضجر من امرأة شابة جميلة في الأيام الأولى من تعارفهما ؟

هي — لقد بلغ من تعلقك بالحديث معي انك كنت تقرأ لي طائفة من شعر فرنسي تحبه

هو — اعتدت ان أقرأ مثل هذا الشعر لفتاة منذ بضعة أعوام فلم أطق بعدها أن اقرأ شعر الحب وحدي

هي — ولكنك لم تشر الى تلك الفتاة مرة واحدة في جميع أحاديثنا الطويلة

هو — كنت أتوقع هذا اليوم فلم يكن من السهل ان افتح لك مغاليق قلبي

هي — هل كنت تحبها ؟

هو — مرت من بعيد في أفق حياتي هي — كم مررت أنا ؟

هو — اذا شئت هي — أنت تخدع نفسك وتحاول خديعتي

هو — تظنين ؟ هي — اني واثقة هو — اذا كانت هذه الثقة ترضيك فعلي

هي — لست طفلة حتى تتحدث اليّ بهذه اللهجة الساخرة . اني استطيع ان اذكرك بأمور كثيرة تؤيد ثقتي بما قلته هو — مثلاً ؟

هي — لقد ذكرتني في الأيام الأولى لتعارفنا بالمرات التي وقع بصرك عليّ

فيها . مرة وأنا أتناول طعام الشاي مع ابن عمي في شرفة «جروبي» . وأخرى وأنا جالسة في توب البحر على شاطىء «جليم» . وثالثة وأنا أعدو لاهثة لأودع أخي في محطة الاسكندرية

هو — ماذا تنتظرين من رجل يجد أمامه امرأة تصارحه بأنها كانت تتوق الى معرفته منذ بضعة أعوام وأنها ظلت مترددة في التحدث اليه حتى استجمعت شجاعتها ؟ أليس من القسوة ان يجابهها بأنه لم يكن يشعر بأن لها كياناً يستوقف نظره ؟

هي — ولكني فهمت اني كنت أثير اهتمامك كل مرة رأيتني فيها

هو — لم تخطئي كثيراً في ذلك الفهم ولكن . . . هي — ولكن ماذا ؟

هو — ولكني قبلك اهتممت ذات يوم بركن نصف مظلم في أقصى حديقة مورو بالجزيرة .. ركن منزوٍ لم يكن الكثيرون من زوار الحديقة يلتفتون اليه . مقعد منحوت من جذع شجرة توت . وسقف من أغصان الكرم الرفيعة وسياج من العشب النامي يحجب ضجة الطريق عنهُ . ولقد بلغ من اهتمامي بذلك الركن أني تصدت السؤال عن البستاني المهودانيه به . فعرفت اسمه . واكتسبت صداقته . واوصيته به خيراً وكنت كلما مررت بذلك الركن أجزلت للبستاني العطاء لكي يعنى به العناية التي ترضيني .. كثيراً ما ذهبت الى ذلك «العش» وتفقدت جوابه . وأزلت بمنديلي الرماد المتراكم على مقعده كأني كنت أتوقع أن يكتشفه غيري . وقد حدث ما توقعته . مررت ذات يوم فوجدت عاشقين شابين جالسين متلاصقين على المقعد . لمحتهما من خلف العشب النامي فابتسمت ثم عدت أدراجي ولم أدخل حديقة مورو بعد ذلك قط

هي — ماذا تعني ؟ انك تهذي ، أي تشابه بيني وبين العش المنزوي في تلك الحديقة ؟

هو — اكتشفته كما اكتشفتك . وأوحى اليَّ بكتابة بعض قصائدي التي أحبتها . كما أوحيت اليَّ انت بكتابة البعض الآخر

هي — ولكنك تركت ذلك العش عندما اتضح لك ان غيرك قد اكتشفهُ . فلمَ تتعمد ايذائي بهذا الكلام ولم يبلغك عني انني نكثت عهدك مع رجل آخر

هو — علمت أن غيري قد اكتشفك قبلي هي — « حانقة » ماذا ؟

هو — لا تثوري .. انا تقابلنا لنفترق . لمَ لا اصارحك بكل شيء ؟

هي — ولكن هذا كذب

هو — ليس من السهل أن تعترف المرأة بماضٍ كانت تخفيه !

هي — لم تطالبني يوماً بأن أقدم لك حساباً عن هذا الماضي

هو — ولكنك تركتني أتهم الأماضٍ لك ! هي — ثم . . .

هو — ثم عرفت أن غيري قد سمع منك الأمانات الشاكية التي سمعتها منك ولذعت أذنيك العبرات الساخنة التي جعلتني أسهر ذات ليلة حتى الصباح أنظم قصيدة خيل إليَّ ليلتئذٍ أنها أروع قصائدي هي — خيل اليك !

هو — أجل . فقد كرهت تلك القصيدة ولو استطعت أن أجمعها من المكتبات وأحرقها لما ترددت هي — ولِمَ ؟

هو — لأن الوحي الذي ألهب روحي ليلتئذٍ لم يكن نقيًّا

هي — اني سعيدة اذ أسمع منك هذا الكلام . انك تحببني الى حد انك تثار من ماضي قبل أن تعرفني هو — واهمة ! هي — لا . بل واثقة

هو — لن أبخل عليك بأن أدعك اليوم وأنا أحدث اليك حديث الوداع تتزين بهذا « الوهم » ولكنني أقسم لك اني كنت أرجو وأنا أكتب قصائدي عنك ان يراك الناس بعد قراءتها ويشيرون اليك إذ يتبينون نوعاً أنك (وحي) تلك القصائد . أما اليوم فان ما يؤلمني هو شعور الذين عرفوك قبلي بنفاهة تلك القصائد أنهم يقرأونها ساخرين . انهُ شعور بالخيبة لا بالغيرة كما خيل اليك

هي — لست أول شاعر ألهبت روحه امرأة أحبت من قبل وأحبها الناس

هو — ولكني آخر شاعر يجمع بقايا امرأة ليكي ينصب من هذه البقايا تمثالاً يحرق تحت قدميه البخور ويخدع الناس فيجعلهم ليشتركوا معه في ذلك العمل الذليل. لقد أبيت ذات مرة ان أعهد بدور البطولة في قصة لي الى ممثلة من الممثلات المعروفات اللاتي اعتاد الناس ان يصفقوا لهنَّ. وان يملأوا أجواء المسارح بأصوات الهتاف بأسمائهنَّ . وقد ظللت أبحث حتى « اكتشفت » الفتاة التي تصلح في نظري للقيام بذلك الدور . لم يكن أحد قد سمع باسمها، كانت مغمورة وسط دنيا من النفاق تبذله الجماهير للمعروفات من الممثلات . فلما ظهرت في قصتي ونجحت ظللت أشعر منذ ذلك الوقت اني صاحب « الفضل » في نجاحها . وكنت كلما اتصل بي

خير توفيقها ازداد احساسي بأني اكتشفت شيئاً لم يكن غيري قد التفت اليه من قبل . لا يهمني الآن ماذا تفعل . فقد علمتها عندما عهدت اليها في قصتي ، كيف تحب كما أريد أنا ان تحب النساء . وكيف تثار كما أحب أنا ان تثار النساء

هي — ولكنني لست ممثلة . . انك تنسى نفسك

هو — أنت التي تنسين . . انك لم تتقدمي اليَّ الاَّ لأني شاعر تقرأين له وتودين ان تعرفي كيف يعيش حياته الخاصة . . هأنذا أقولها لك في صراحة . . اني أعيش هذه الحياة قصة . . بدأت فصولها يوم خفق قلبي بأول خلجة شعرية أحياناً تبكي وأحياناً أخرى تطلق الضحكة المرحة من أعماق روحي . . والمرأة التي تكون الى جانبي يجب ان تعرف أنها تلعب الدور الاول في تلك القصة . . فاذا كان قد سبق لها أن لعبت ذلك الدور في حياة رجل آخر فاني أشعر على الدوام بخشيتي من شيء ما . . كلمة واحدة قد تكون لا تزال عالقة في ذاكرتها من « الدور » الأول تعود الى التفوه بها في غفلة منها أمامي . . « حركة » صغيرة كان يقضي الدور الاول بأن تؤديها تخطىء فتكرر أداءها وهي الى جانبي . . « اسم » كان عليها ان تردده وهي « تعيش » في الدور الاول وربما خانها لسانها فتطلق يردده مرة أخرى بحكم العادة والتكرار . هذه الخشية تجعلني لا أستطيع ان أتمدد على الارض بعيداً عن العالم ، وأدعها تعبث بأصابعها في شعر رأسي حتى أنام وهي ساهرة الى جانبي تنتظر يقظتي . وتحلم في اليقظة أحلامي في النوم . . يخيل اليَّ دائماً انها أثناء نومي ستخطىء فتطلق تلك « الكلمة » أو تؤدي تلك « الحركة » أو ترديد ذلك « الاسم » فأهب مذعوراً كأن رجلاً آخر أقبل ليقذف في وجهي بماض طويل لم تتصل بي جميع تفاصيله

هي — « في صوت مرتجف تدنو منهُ » ولكن ذلك الرجل لم يقبل بعد . .

هو — أعرف انهُ مقبل عما قريب . . وهذا هو الذي جعلني أنفر منك . وأحقد على اليوم الذي عرفتك فيه

هي — من أين جاءك انهُ مقبل عما قريب ؟

هو — انت

هي — « تشهق » انا ! كيف ؟

هو — « يبتسم ابتسامة صفراء » — ليس هذا حال من تحب حبها الاول

هي — ماذا تفعل لو انها كانت تحب ذلك الحب ؟

هو — لا تتكلم بهذا الثبات ولا تتجلد امام « رجلها » هذا الجلد . . ولا تقاوم عشرات الايام لكيلا تراه . . بل تفقده اذا غاب وتبكي بين يديه اذا غضب . . وتسقط مغشيًّا عليها في موقف الوداع . أترين ؟ انك وقفت هذا الموقف من قبل . أجبت ، وافترقت ، ولذا تتحدثين اليَّ كأنك تلقين « كلام » دور قديم سبق لك أن مثلته

هي — « استجمع قواها » ولكنك تتحدث كأنك تودع حبك الاول

هو — هذا هو الفرق بيني وبينك . ولو لم أحبك في كل مرة كأني أحب للمرة الاولى وأودع للمرة الاولى لما استطعت أن أكتب شعراً

هي — اذن كنت تخدعني ؟

هو — نحن الاثنان خدعنا الناس . اذ قدمنا لهم ذلك الشعر الذي يصف غرامنا . ذلك الغرام الذي سرعان ما انطفأ . ان الناس قد شهدت اشتعال ذلك الحب ولكنهم لن يشهدوا انطفاءه هي — ولمَ ؟

هو — لانني لو فعلت لكان واجباً ان أذكر انك اعتدت ان تشهدي مواقف الوداع . وليس في هذا ما تزهى به امرأة مرَّت ذات يوم في أفق حياتي

هي — « باكية » والآن ؟ هو — لا شيء . . الوداع

هي — ولكن عينيك تلمعان بالدموع

هو — هكذا اعتدت عند ما أشهد مصرع غرام في قصة حب تعرض أمامي على خشبة المسرح . او عند ما اقرأ حوار موقف وداع في قصة ما

هي — اذن فما كان بيننا كان « حبًّا » هو — أجل . . ثم انطفأ

هي — ربما كنت مخطئاً . اقترب . انظر الى عيني . . ربما تبيَّنت انهُ لا يزال يشتعل ، أو أنهُ اشدُّ اشتعالاً من قبل . هو — من أنت حتى أنظر الى عينيك ؟

هي — كيف . ألا تعرفني ؟ هو — لا . . انني لا أعرفك

هي — ولكنني . أنا . أنا التي أوحت اليك بأعز قصائدك الى روحك وأقربها الى أرواح الناس

هو — من قال لك ذلك . . انك واهمة . . « يضحك ضحكة جافة » انها امرأة أخرى . امرأة لا مضي لها . . اذكريها بالخير ياسيدتي كما سوف اذكرها . الوداع